



منطقة واد نون من خلال آثار الرحالة الغربيين

الدكتور محمد دحمان

- حالة الرحالة الفرنسيين-

جامعة ابن طفيل - القنيطرة

- ملخص المداخلة:

في مستهل مداخلة الأستاذ الباحث محمد دحمان تطرق إلى تناول المنطقة من خلال عيون الأوربيين أي ما كتبه الأجانب أي نظرة الآخر عنا . وقد لفت السيد المحاضر الانتباه إلى الكتابات الوطنية التي لم تهتم بالمنطقة باستثناء بعض النتف وتم إغفال العادات والتقاليد والأعراف ، ثم عرج على ما دونه الرحالة والمستكشفون الغربيون من مشاهدات وملاحظات أثناء زيارتهم إلى المنطقة . وقد حدد الأستاذ المحاضر ستة نماذج من النصوص حاولت تناول المنطقة وهي على التوالي :

النص الأول : رحلة روبرت آدمز وهو أمريكي تحدث في مذكراته عن ما أسماه مدينة وادي نون (كلميم) في القرن 19 ، عن الدور والمباني والخيام والحقول الزراعية وتناول الشرائح الاجتماعية .

النص الثاني : رحلة ألكسندر سكوت الانجليزي دون في رحلته وصف عن وادي نون التي يعيش فيها الصنهاجيون والعرب .

النص الثالث : رحلة كوشلي التي تحدث فيها عن وادي نون باعتباره منطقة وليس مدينة ، وتنتظر للأسر التجارية والقوافل التجارية .

النص الرابع : رحلة ليوبولد باني كانت مهمته استكشافية تجسسية حول المعطيات الطبيعية والبشرية في إطار الإستراتيجية الفرنسية الرامية إلى ضبط المجال . وتحدث الرجل عن مدينة لكصابي التي لا تقل درجة عن كلميم التي تعمرها قبيلة أيت لحسن ، وتحدث عن الهندسة العمرانية في المدينة وتحدث عن الرقيق السود ، كما تحدث عن العادات والتقاليد الاجتماعية في المدينة .

النص الخامس : رحلة بن المقداد الذي تعلم اللغة العربية والقرآن وكان مساعدا لقاضي مدينة سان لوي وصل إلى وادي نون ، وتحدث عن وجود تجاري في مدينة كلميم وتحدث عن التجار الوافدين إلى المدينة من السودان الغربي ومن شنقيط ، فجمعت رحلته مجموعة من التراكمات المادية والرمزية .

النص السادس : رحلة ماتيس التي قدم بموجبها تقريرا للقنصل الأمريكي عن وادي نون كمركز تجاري وسيط ، ويقول عن سكان وادي نون بأنهم نشطاء وأذكاء ، وتحدث عن قبائل المنطقة وعن استراتيجياتها المختلفة .

وخلص الأستاذ المحاضر إلى ضرورة استثمار ما كتبه هؤلاء الرحالة وتبويبه ووضع في إطاره التاريخي

- المداخلة:

تحدثت كتب الرحالة والجغرافيين العرب عن " المجابات الكبرى " وعن طريق القوافل الصحراوية ما بين المغرب الأقصى وإفريقية جنوب الصحراء، مركزة على نطاق الماء والأسواق



وما تحمله تلك القوافل جيئة وإيابا ، كما تحدثت عن نول لمطة وأقل من ذلك عن تجاوست (تسكنان) وما يقع غرب واد أم لشعار من قرى وقبائل.
كما أن الكتابات المحلية لم تولي كبير عناية لمنطقة واد نون ما عدى كونها معبر للقوافل أو سوقا سنوية "الأزولاي"¹. أو مكانا للاستراحة وحمل الزاد نحو الشمال أو نحو الجنوب. لذلك أهملت تلك الكتابات القليلة أصلا جونا عديدة من مظاهر الحياة اليومية من تقاليد وعادات وأعراف وعلاقات قبلية، وعلاقات بالجار ذات الشمال والجنوب .
وتأسيسا على ما سبق ذكره، يظهر أن للكتابات الأجنبية ما تسهم به في معرفة تاريخ هذه المنطقة.

ونعني هنا ما دونه الرحالة والمستكشفون الغربيون من ملاحظات ومشاهدات أثناء مرورهم أو إقامتهم بهذه المنطقة. خاصة أن الأمر يتعلق بمجال جغرافي ظل لقرون عديدة هدف الأوروبين خاصة منهم الأيبيريون. كما ظلت شواطئ هذه المنطقة "مقبرة" للعديد من السفن الأوربية التي يصير ركابها رهائن لدى ساكنة المنطقة. هذا ناهيك عن أهمية رؤية الآخر لنا، تلك التي لا تخلو من منحى وصفي "عقلاني". ثم قدرة هؤلاء الأجانب..... على الجانب السلبي للأشياء والإفصاح عنه .

و نحن في هذه العجالة نطلق من قراءة لسنة نماذج من النصوص التي كتبها أجانبا انطلاقا من مشاهداتهم، وهم يعبرون منطقة واد نون طيلة القرن التاسع عشر الميلادي.
1- رحلة روبرت آدمز (Robert Adams) : وهو ربان أمريكي تحطمت به السفينة على الشواطئ الصحراوية شمال الرأس الأبيض (Cap Blanc) في أكتوبر سنة 1810، فاعتقله السكان من إيمراكن وباعوه لقافلة نقلته لبياع بتبكتو فتاودني ثم بيع بواد نون ليشتري بعد ذلك ونقل إلى موكادور (الصويرة). يتحدث هذا الأمريكي في مذكراته التي دونها سمون كوك (Simon cook²) عن ما أسماه "مدينة واد نون" باعتبارها حاضرة مستقلة توجد بها الدور والمباني التي بلغ عددها 40 دارا، إلى جانب أحياء من لخيام ، كما توجد بضاحتها حقول زراعية تنتج الزرع والتبغ، والتمور والتفاح والعنب والصبار. ويذكر من الأسر والقبائل : آل بيروك وأولاد أبي السباع وآيت موسى وعلي .

2 – رحلة الكسندر سكوت¹ Alexander Scott :

لم يكن حظ هذا الرحالة أحسن من الأول. فهو إنجليزي أبحر من اتجاه البرازيل سنة 1810، لكن انحرفت به الباخرة إلى شواطئ الصحراء حيث رمت به الأمواج جنوب مصب وادي درعة، فسقط في يد جماعة من توبالت فباعوه إلى رجل يدعى سيدس الحريطاني ، ثم بيع مرة أخرى لقافلة متجهة نحو تمبكتو، لكنه في سنة 1816 استطاع إرسال رسالة إلى قنصل إنجلترا في دجنبر 1816.

¹-أزولاي جمع أزلاي، وتعني بالحسانية قطيع الإبل المجلوب للسوق قصد البيع .،

²-ذلك في نشرة (African Association) بلندن سنة 1815



في رحلته وصف واد نون بالمدينة المجاورة لواد دائم الجريان، كما يصفها بأنها مدينة تتعايش فيها المجموعات الصنهاجية والعربية كما يشير إلى كون واد نون هو الحد الشمالي للقبائل العربية المهيمنة بالصحراء.

3- شارل كوشلي² Charles Cochelet

وهو فرنسي الانتماء انحرفت به الباخرة التي كانت تقفه في اتجاه البرازيل، إلى شاطئ بوجدور (Cap boujdour) حيث قبض عليه أولاد دليم وباعوه لقبيلة أخرى من الرحل شمالا عبر الساقية الحمراء لبيع للشيخ بيروك، ثم اشتراه حاكم مدينة تارودانت بعد أن مر من تازروالت ثم إلى الصويرة فطنجة لينتهي به المطاف بمدينة مرسيليا الفرنسية، تحدث هذا الرحالة عن واد نون باعتباره منطقة وليس مدينة كما رأينا عند الساقية. كما تطرق لبيروك وأخيه إبراهيم ثم آل هاشم وتجارتهم مع تمبكتو حيث قدر عدد جمال قوافلهم بما بين 1500 و2000 من الجمال، وقال بأن منطلق هذه القافلة إما طاطا أو واد نون باعتبارها منتوجا محليا كان يتم توجيهه إلى أسواق السودان.

4_ رحلة ليوبول باني³ (leopold Panet)

ولد بكوري Gorée بالسنغال سنة 1820. وهو من المولدين، معه يبدأ جيل جديد من المستكشفين الذين لم تأتي بهم الصدفة إلى المنطقة، وإنما استجابة لقرار إداري صادر عن السلطة الفرنسية بالسنغال قصد التعرف على الجغرافية الطبيعية والبشرية للصحراء الغربية مفهومها العام. وهكذا قام باني برحلة سنة 1850 انطلاقا من السنغال وصف فيها دقائق الحياة الاجتماعية والاقتصادية بالصحراء، وقد ساعد تعلمه للغة العربية وذكائه في ذلك. حيث تحدث عن منطقة واد نون كمجال فلاحي به العديد من المحاصيل الزراعية مثل القمح والشعير والتبغ وأشجار التفاح والزيتون والبرقوق والنخيل، كما تحدث عن تنوع الثروة الحيوانية إلى جانب القبض على أيدي "النصارى" النازلين على شواطئ المنطقة.¹ في هذه الرحلة نجد كذلك حديثا خاصا عن "قرية لكصابي" باعتبارها لا تقل درجة عن كالميم حسب الكاتب، حيث يقول: "في هذه لبلدة التي تعمرها قبيلة عربية هي ايت لحسن حيث بعض الدور بمثابة قصور حقيقية يسكنها بعض الناس اللذين لم يكونوا يعرفون سوى الخيام، وهنالك دور أخرى بنيت داخل حصن لكن بدون حامية عسكرية"²، ويسجل أن غالبية الدور بلكصابي تتكون من طابق أرضي، أما توزيعها فوق المجال فلا يخضع لطابع هندسي معين، ويشير كذلك إلى إدخال المواشي والخيول إلى وسط هذه المباني خوفا عليها من اللصوص وهو ما يسبب في تكاثر

¹ Nouvelles annales des voyages.T.8.1821 (pp.321-353)

² Charles cochete .naufage du brick français aîné, paris 1821t.I634

3- أنظر:

Léopold panet « relation d'un voyage du senegal à soueira (Mogador) ».in :Revue coloniale, tome V, novembre1850(pp.379-445).

¹ كانت القبائل تتبع هؤلاء الغربيين وتجعل منهم رهائن لممارسة الضغط على القنصليات الأجنبية بالصويرة
² ليوبول باني، المصدر السابق (ص:130)



الذباب والحشرات. أما الرقيق السود فيقطنون في الخيام خارج القصبة محاطون بكلاب حراسة وسياج من أشواك (d'une haie d'épines).
أما بخصوص الزراعة فقد سجل باني (panet) أنها مزدهرة بلكصايب متنوعة الثمار أشجار التفاح والزيتون والتين (figuier) و البرقوق (مشماش).

وبخصوص طبائع الساكنة فقد وصف رجالات قرية لكصايب بالكرم وحسن الضيافة والاستقبال. كما أجرى مقارنة ما بين نشاط نساء البراكنة الترازو ونساء منطقة واد نون ذلك أن نساء الكبلة³ يقين داخل الخيام ينصتن للشعر من طرف الأزواج العائدين من أماكن بيع العلك⁴ للأوربيين على نهر السنغال ، وبالتالي فهن بدون مهام، أما القبائل الموجودة ما بين زمور وواد نون فنساؤها يعملن خارج المنازل في ززالصوف من الغنم ومن الإبل ، وفي نسجه ، بل قد يقدن القطعان إلى المراعي .

وفيما يخص التحولات الحاصلة آن ذاك بواد نون ، فقد لاحظ باني انتقال السكان من الخيام إلى الدور ، ومن استعمال الملحفة وحدها إلى استعمال الحايك و الايزار ومن استعمال الحصائر والخشب إلى استعمال الزليج و الزرابي ويرجع ذلك إلى الانفتاح على التجارة الأوربية .

5- رحلة ابن مقداد⁵ (Bou el Moghdad) :

أصله من مدينة سان لوي (أندر) بالسنغال، تعلم العربية والقرآن بمنطقة الترازو ، ليصبح بعد ذلك مساعدا لقاضي سان لوي . كلفته الإدارة الاستعمارية الفرنسية ، برحلة عبر الصحراء في اتجاه واد نون وأنطلق لذلك الغرض بتاريخ 10 دجنبر من سنة 1860.

وهكذا عبر وادي الذهب ثم الساقية الحمراء متحدثا عن القبائل والزعامات المحلية ونقاط الماء والجبال والأودية إلى أن وصل اكليميم حيث قضى أسبوعا كاملا هناك قصد جمع المعلومات واخذ قسط من الراحة، نظرا لخوفه الشديد من مفاوز الصحراء، ذلك أنه لو لا أحد رجالات قبيلة آيت لحسن لما وصل واد نون من وادي الذهب¹. وصف ابن مقداد اكليميم باعتبارها عاصمة واد نون، يوجد في زعامتها الشيخ محمد بن بيروك ، كما تحدث الكاتب عن وجود تجار من تشيت وشنقيطي ومن أولاد أبي السباع أتوا للتبادل التجاري إلى اكليميم ، في الوقت الذي يتحدث فيه ابن المقداد عن رسل للسلطان أتوا إلى الشيخ محمد بن بيروك بغرض توجيه منتجات السودان والصحراء نحو داخل المغرب² وقام هذا المترجم بترتيب حواضر واد نون حسب الأهمية كما يلي : لكصايب ، وعرون ، تالوين ، ايكيسل ، أبينو ، أسرير وتيغمرت . ويظهر من خلال نص هذه الرحلة أهمية منطقة واد نون كمجال لتبادل الموارد المادية الرمزية والاجتماعية نظرا لقوة الرواج التجاري والتفاعل ما بين المجموعات والأفكار والوافدين من كل حذب وصوب.

³ الكبلة هي منطقة الترازو بموريتانية الحالية .

⁴ العلك: الصمغ العربي

⁵ هو المختار سك (الملقب ابن المقداد الأكبر) توفي سنة 1882 :

Bou el Moghdad « voyage par terre enter la Sénégal et le Maroc » , revue martritime et colonial mai 1861, (pp.477_494)

¹ يتحدث بهذا الصدد عن خيام من آيت لحسن استقبلوه عند امكيسم الحيران رافقه أحدهم لتأمين رحليه.
² هنا يتحدث عن أهمية وادنون بالنسبة لمراقبة التراب من طرف السلطان عبر الزعامات المحلية (محمد بيروك)



6_ تقرير فيليكس ماتيوس³ (Felix Mathews)

ماتيوس دبلوماسي أسباني الأصل ولد بطنجة سنة 1833 ثم حصل على الجنسية الأمريكية في حياته ليصبح قنصلا للولايات المتحدة بالمغرب ابتداء من سنة 1869. وقد اهتم بالجنوب المغربي حيث قدم تقريراً⁴ مفصلاً عنه سنة 1881، حيث تحدث عن واد نون باعتباره "متجراً وسيطاً" (comptoir intermédiaire) بالنسبة للتجار المغاربة نظراً لموقعه الجغرافي الهام. يقول عن سكان واد نون: إن أهل واد نون ظلوا دائماً نشيطين وأذكياء فعندما أحسوا بتراجع تجارتهم قاموا بمحاولات متعددة لخلق علاقات جديدة لتنمية مواردهم لذلك ابتهجوا لقوم بواخر الصيد الإسبانية التي أصبحت تترتد شواطئهم من وقت إلى آخر⁵ كما تحدث التقرير عن قوة قبائل المنطقة وتديبرها لشؤونها المحلية وفق إستراتيجية تراعي الظروف المحلية والمخاطر الأجنبية المحدقة بالمنطقة.

استنتاجات عامة

تظهر النماذج المعروضة تواء، أهمية وغنى ما كتبه الأجانب عنا رغم ما يعتريه أحيانا من نظرة استعلائية وأحكام جاهزة. لذلك لا مناص من النصوص وتبويبها ودراستها دراسة متفحصة عملية تنأ

بأصحابها عن شطط التأويلات الإيديولوجية المغرضة. وأيضاً وضعها في سياقها التاريخي المتميز بفترة الاصطدام بالأخ، وسياقها الاجتماعي المتميز بكون أصحابها يجهلون طبيعة المجتمع البدوي الطاعن بتراب البيضان ما بين واد نون والصفة الشمالية لنهر السنغال و عقفة نهر النيجر (البحر البارد). إن هذه المادة المصدرية تظهر انفتاح ساكنة المنطقة على العالم الخارجي وكذا التعايش ما بين مجموعات اجتماعية مختلفة ثقافياً أحيانا كالأمازيغ والعرب واليهود. كما تبين هذه النصوص نسبية وضعف الأطروحة الاستعمارية التي اعتبرت البدو الرحل والمستقرين بالوحدات¹، حيث أنه كان هناك تبادل اقتصادي واجتماعي ما بين الرحل والمستقرين بل تكامل وتواصل لا ينقطع، وذلك يعكس دينامية مجتمع واد نون خاصة والمجتمع الصحراوي عامة ودوره في التواصل ما بين حافتي الصحراء.

كما تظهر هذه الرحلات الأجنبية جانب المبادرة وقدرة الإنسان الوادوني على نسج علاقات اقتصادية واجتماعية ذات مرد ودية مادية وثقافية، ساهمت إلى حد كبير في استمرارية الأمة المغربية في هذا الجزء من القارة الإفريقية. لهذا لا بد من دراسة متأنية لهذه المصادر الأجنبية لتاريخنا ولذلك "فالمعالجة التاريخية الناضجة - دعك من الخرافة بعواملها الساذجة الفتانة، ومن الملحمة بمواكبها الفخمة الزاهية - لا تبدأ إلا من بعد أن نقبل احتمال وجود النقص والشوائب

³ انظر :

Felix A Mathews « Northwes Africa and Timbuctoo » in journal of the American Geographical Society of New York, 13,1881(pp.196_219)

⁴ قدم بول باسكول قراءة هامة حول هذا التقرير نشرت ضمن كتاب : enjeux Sahariens, CNRS Paris 1984

⁵ ماتيوس ' المصدر السابق الذكر (ص:194)

-حول الترحال والاستقرار يمكن مراجعة كتابنا : محمد دحمان ، الترحال والاستقرار بمنطقتي الساقية الحمراء ووادي الذهب ، مطبعة كوثر، الرباط 2006



ونتقبل المسافة التي تفصلنا عن الأجيال الغابرة، ومن أحسن المقدمات الضرورية التي تعيننا على ممارسة مثل هذه المفرقة المنهجية، الإطلاع على رؤية الآخرين لنا مهما أوغلت في القسوة²

- من تقديم الأستاذ عبد الودود ولد الشيخ لكتاب. وثائق من التاريخ المولریتانی نصوص فرنسية غير منشورة. ترجمة السناد محمد بن محدن، نشر جامعة أنواكشط، 2000